مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 2 السنة: 2020
ص: 27 - 43 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الصمت في النظام التواصلي والكتابات السردية.
أسبابه – أصنافه ودِلالاته.

Silence in the communicative system and narrative writings.
Its causes - its varieties and its Significations

د. عبد الغني بن صوله*.
Abdelghani Saoula
جامعة محمد الشريف مساعدية/ سوق أهراس/ الجزائر.
University of Souk Ahras. Algeria
ghanijojo69@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/05/21	تاريخ المراجعة: 2019/12/04	تاريخ القبول: 2020/06/02

ملخص البحث

يظّل الصمت – بصفته ظاهرة في النظام التواصلي (خطابا أو محادثة) موضوعا يحتاج تسليطَ ضوء أكثرَ، وحقل دراسة طريفٍ، إذا ما علمنا – مع التحفظ العلمي – قلة ما كُتبَ وقِيل فيه.

ففي حدود الاطلاع على ما كتب في الصمت، فإنّ الأطر النظرية له – ودون شطط في القول- تكاد تكون منعدمةً، ما دفعني وحفّزني إلى طرح الموضوع من زاوية نظر مخالفة؛ أي النظرَ في أسباب الصمت، قبل النظرِ في الدلالات التي يخرج إليها، ذلك أن الصمتَ في حقيقته هو ردة فعلٍ إزّاء مثيرٍ ما، قبل أن يكون نظاماً تواصليا يجنح إليه إما المرسل أو المرسل إليه.

في ضوء الرؤية المشارِ إليها سلفاً، تروم هذه الورقة البحثية، إلى محاولة طرح تصور حول انقسامات الصمت انطلاقا من مسبّباته، مع التعريج على الدلالات التي يؤول إليها في بعض الخطابات الأدبية.

الكلمات المفتاح : الصمت ؛ النظام؛ دلالات ؛ السردية.

abstract

Silence – is a phenomenon in the communication system (subject or conversation) - subject to a need for further study, especially if we know the lack of books that learn silence.

These are the theoretical frameworks that are almost non-existent, which pushed me and we walked in the subject from another angle of view. That is

* عبد الغني بن صوله. ghanijojo69@gmail.com

to say, to consider the causes of silence, before taking into account the indications of what is said, to say that silence has become a kind of direction, before it is a communication system used by the sender, either by the addressee.
In light of this vision, this research article presents sections of silence through causes, and semantics derived from certain literary discourses.
Keywords: silence; system; semantics; narrative.

على سبيل التمهيـــد:

من منّا لا يحب الصمت؟ لماذا نصمتُ؟، ما أسبابه وما الحكمة منه؟، تساؤلات مشروعة لكل واحد منا، لم تكن من فراغ، لقد أُثر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أعداد لا تحصى من الأحاديث تتحدث عن الصمت وتحثّنا عليه، وأخرى تعظم من شأنه، نذكر منها من باب الاستشهاد قولُه عليه الصلاة والسلام: " **من سرّه أن يسلم فليصمت**"[1]، وفي موضع أخر يقول:" **ألا أُعلمك بعمل خفيف على البدن، ثقيل في الميزان**" فقلت بلى يا رسول الله، فقال:" **هو الصمت وحسن الخلق**"[2].

وللتدليل على كثرة الأحاديث في الصمت، يكفي ذكر كتاب: **الصمت وآداب اللسان** لابن أبي الدنيا الملّخص في رسالة **حسن السّمْتِ في الصمت** لجلال الدين السيوطي.

الصمت ظاهرة أو نظام تواصلي يحسن التوقف عنده، فمتى حدث الصمت من المخاطِب تساوى والمخاطَب، خصوصا إن كان صمتا لا إراديا اضطراريا لسبب من الأسباب.

أولا: في ماهية الصمت:

تنحدر اللفظة من الأصل اللغوي (ص.م.ت)، الدال على الإبهام والإغلاق، من ذلك صَمَتَ الرجل إذا سكت، وأصمت أيضا، ومنه قولهم التقيت فلانا ببلدة إصْمْت، وهي الفقر التي لا أحد كأنها صامته ليس بها ناطق[3]. ومن الأمثلة الشائعة " لا صامت له ولا ناطق؛ فالصامت الذهب والفضة، والناطق: الإبل والغنم"[4].

ولا يخرج جامع القواميس لسان العرب عن المعني اللغوي الذي طرحه ابن فارس في مقاييسه؛ إذْ الصمت من: صمت يصمت صمتا وصُمتا، وصُماتا؛ وأَصْمَتَ: أطال السكوت، والتصميت التسكيت[5].

في ضوء الدلالة اللغوية لـ (صمت) فالصمت ضد النطق؛ أي السكوت، ولا يتعلق فقط بسكوت الإنسان، وإنما يخرج الصمت ليحيلنا على الهدوء والسكينة، فقد نقول تجوزا خيّم الصمت على القاعة.

أما الجاحظ فقد ميز بين لفظتي السكوت والصمت حين قال:" ومتى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكنا، وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات"[6]حيث ربط الصمت بالمعنى، في حين يجعل السكوت متعلقا بالتلميح والإشارة.

وعن الدلالة الاصطلاحية- وإن كان المصطلح في أصله هو الخروج من معنى لغوي إلى آخر جديد، شرط وجوب المناسبة بين الأول والثاني[7]- فإنه من الصعب تحديدها بسبب عدم وُرود المفردة في مجال معين يؤهلها لأن تكون مصطلحا متقمصا مفهوما ما.

ولا يختلف المعنى النووي للصمت في الأدبيات الغربية، عما أُشير إليه، إذْ الصمت" يعرف للوهلة الأولى على أنه غياب الضجيج، وغياب الصوت"

Dans un premier temps, le silence se définit par la négative : absence de bruit, de son, quelque chose de vide[8].

ثانيا- الصمت بأعين اللغويين والبلاغيين:

الصمت المزمع دراسته في هذه الورقة البحثية، ليس ذلك الصمت لدى اللغويين العرب أو البلاغيين الذي يأتي بمعنى الإضمار أو الحذف، إلا أنه لا ضير في التعريج عليه ورصد أهميته وأبعاده البلاغية، كما يمكن إدراج هذا النوع من الصمت ضمن الصمت المقصود، إما من المرسل، أو المرسل إليه تحقيقا لمبدأ الاقتصاد اللغوي.

يقول الجاحظ في رسائله:" اعلم أنّ الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة موضعه، وذاك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عيا، ولا رهبة. فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص، وهَذَر من أطلق لسانه بغير حاجة"[9].

ما يمكن استجلاؤه من هذا الكلام أن الجاحظ تحدث عن الصمت معتبرا إياه سمة حميدة. ما لم يكن عياً؛ أي عجزاً، أو رهبة، وأنّ الصمت متى كان في موضعه، كان أنفع لصاحبه من اللّغو والكلام الفائض الزائد، فالإنسان أسير لسانه، وخير الناس من سلم الناس لسانه، وصانه عنهم.

لقد قيل" يسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول: كيف أنتن؟ فيقلن بخير إن تركتنا"[10]. ومن القصص الطريفة في هذا السياق أنّ" بهرام قال: وسمع في الليل صوت طائر فتحّداه بسهم وهو لا يراه، إلا أنه تتبع الصوت فصرعه، فلما صار بين يديه قال: والطير أيضا لو سكت لكان خيرا له"[11].

إن الصمت المقصود لدى الجاحظ هو ذلك الصمت الذي حثنا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي قد أشرت إليه في بدايات هذا البحث. ولنا أن نسميه **الصمت الواجب المفروض** التحلي به في بعض الوضعيات التواصلية إذا ما حدثت، مثل مجالس الغيبة والنميمة والتعرض لأعراض الغير.إنه الصمت المتعلق بالأخلاق والآداب.

أما الحذف والإضمار فقد بحث فيه أهل البلاغة والبيان، كما بحث فيه أهل اللغة والنحو. وهما ضرب من ضروب الإيجاز، تناولهما التراثيون بمعنى واحد[12] ومنهم من حاول التفريق بينهما[13]، لكن ما يهمّنا ههنا؛ تلك الأغراض والأسباب الداعية إليه، فإذا " كان المقصود من الكلام هو الإفهام والتعبير؛ فإن الألفاظ فيه ليست مقصودة لذاتها، وإنما لما تؤديه، ولذا فإن إضمار أيّة كلمة، لابدّ أن يكون وراءه مغزى وفائدة بلاغية، وتلك الأغراض منها ما هو معروف، يمكن حصره، ومنها ما يكون متعلقا بالمقام الداعي للكلام"[14]

ولنا أن نلخص الأغراض التي يخرج إليها الإضمار في المخطط الآتي:

أغراض الإضمار والحذف:

الاحتراز عن العبث لظهور المراد يتسع للتصريح بالمضمر	التنبيه على أن الوقت من أهمية الحدث لا
تهويل الأمر وتعظيمه المضمر في الكلام	تخفيف اللفظ بفعل كثرة دوران
أن يكون المظهر المتعلق بالمضمر لا يصلح إلا له	صيانته عن الذكر تشريفا وتعظيما
صيانة اللسان من ذكره تحقيرا المراد على شيء واحد	قصد العموم (أي عدم قصر
مراعاة الفاصلة لتوافق الفواصل.	قصد البيان بعد الإبهام.

مخطط أغراض الإضمار عند البلاغيين[15]

عموما باب الحذف والإضمار باب يطول الحديث فيه، ولا يتسع المقام لهذا، وخاتمة القول أنّ المضمر مبدأ طبيعي في اللغات الإنسانية جميعها مثله مثل آليات التوليد التي تمارسها اللغة داخليا.

ثالثا:انقسامات الصمت في النظام التواصلي:

في الحقيقة ليس هناك صمت مطلق، بل هناك دائما ما يُحدث الصمت، وعلى هذا يبدو الصمت في حقيقته؛ مفهوما وعملية عقلية محضة[16]. فكل واحد منا قادر على خلق الصمت في العملية التواصلية متى أراد ذلك، ما لم يرتبط هذا الصمت بقدرة تأثيرية خارجة عن نطاق المرسل والمرسل إليه.

تتعدد انقسامات الصمت وفق تعدد زوايا النظر إليه، فللصمت تعلق لغوي نفسي، وآخر اجتماعي ثقافي.

1/–الصمت اللغوي النفسي:(LE SILENCE PSYCHOLINGUISTIQUE)

ونقصد به ذلك الصمت المستخدم في فك شفرات اللغة؛ قد يكون قصير الأمد، وحينئذ يسمى الصمت السريع (Le silence rapide)، وقد يكون طويل الأمد ونسميه الصمت البطيء (le silence lent)[17] هذا الصمت ممارس من قبل كل واحد منا، وهو الوقت الذي نقضيه في ترجمة الأثر الناتج عن أي تتابع صوتي، أي زمن العملية الفيزيولوجية التي يحدث فيها ربط الدال بمدلوله، أو الفترة التي نقضيها في التفكير للإجابة عن سؤال ما. وهنا طبيعة السؤال هي التي تحدد ما إذا كان الصمت؛ صمتا سريعا أو بطيئاً، فنحن البشرَ تكون استجاباتنا سريعة أمام الأسئلة العادية المتعلقة بحياتنا اليومية؛ مثل كيف حالك؟، إلى أين تذهب؟. هل نمت؟ هل أكلت...إلخ، في حين تكون ردود أفعالنا، واستجاباتنا مقابل الأسئلة الشخصية بطيئة، إما محبةً في التكتم لأنها شخصية، أو بفعل الحياء.

أيضا نلاحظ هذا الصمت بنوعيه في المجال التعليمي بمختلف أطواره (من الابتدائي إلى الجامعي) وخصوصا في المساءلات الشفهية للمتعلمين، وهذا أيضا مردّه طبيعة الأسئلة المطروحة؛ فالأسئلة المباشرة تكون الاستجابة لها سريعة على غرار الأسئلة غير المباشرة التي تحتاج وقتا أكبر بغية التفكير والتركيب.

2/–الصمت التفاعلي:(LE SILENCE INTERACTIF)

الصمت التفاعلي؛ توقف مؤقت في الحوارات أو المحادثات، أو النقاشات، يكون مرتبطا بالعلاقات العاطفية والشخصية، وعادة ما يكون أطول من الصمت اللغوي النفسي[18]. في فترة هذا الصمت يتحول المرسل إلى مرسل إليه؛ أي من متكلم إلى مستمع، وهذا ضروري لتحقق العملية التواصلية، وتبيلغ الرسائل.

يختلف الصمت التفاعلي عن الصمت اللغوي النفسي؛ في كون الأول خاضع لسلطة السياق الذي يتحكم في مدته، فعلى سبيل التمثيل في المناظرات العلمية أو السياسية أو غيرها، فإن مدة الصمت تكون بمقدار مدة التحدث أو الكلام للطرف المناظر الآخر. ودائما ما يكون الصمت هنا تهيأً واستعدادا واستحضارا للأفكار قصد الردّ. وفي ظل هذا الصمت التفاعلي يتموقع الصمت اللغوي النفسي الذي يستهلكه المتلقي في ترجمة شفرات الرسالة.

3/–الصمت الاجتماعي الثقافي: (LE SILENCE SOCIOCULTUREL)

الصمت الثقافي والاجتماعي متعلق كل التعلق بالسمات المميزة للمجتمعات والثقافة التي يحتكم إليها كل مجتمع[19]

وعلى هذا– ووفق تصوري– يمكن تقسيم هذا النوع من الصمت (الاجتماعي الثقافي) استنادا إلى مسبباته وأطره الاجتماعية إلى الانقسامات الآتية:

أ/– صمت الرضا:Le silence de la satisfaction

كثيرا ما يكون الصمت نتيجة قبول ورضا بالنسبة للمُخاطَب، ودِلالةَ قبول ورضا بالنسبة للمُخاطِب، ولا أفضلُ للتدليل على هذا النوع من الصمت، إلاّ ذكر السنة التقريرية المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم. والسنة التقريرية – في مفهومها "سكوت النبي عليه الصلاة والسلام على قول أو فعل أو حكم بلغه، وهو الدليل على جواز الفعل وإباحته"[20]. فالرسول عليه صلوات الله كان سكوته أو صمته نتيجة رضا واستحسان، وسكوته بالنسبة للصحابة كان بمثابة الدليل والإشارة على الرضا والاستحسان؛ أي أن السكوت ذاته حكم بجواز الفعل الواقع، وهكذا " اتفق الأصوليون على أنّ الرسول – صلى الله عليه وسلم– إذا علم بفعل صدر من المكلف، وسكت عنه، ولم ينكره، مع القدرة على الإنكار، كان ذلك التقرير دليلاً على جوازه، وإباحته، وأنه لا حرج على المكلف في فعل ذلك"[21].

ولا يمكن أن نعتبر سكوت النبي (ص) كسكوت سائر البشر، باعتباره صادر من رسول منزه مكرّم، فهذا السكوت يتضمن أحكاما شرعية لا تتعلق بالجواز فقط وإنما الوجوب أيضاً؛ إذْ " إباحة الفعل المستفادة من سكوت النبي –صلى الله عليه وسلم لا تعنى أن الفعل لا يكون إلا جائزا فقط، فقد يكون الفعل واجباً بدليل آخر، وعلى هذا فمجرد سكوت النبي (ص)، لا يفيد أكثر من إباحة الفعل، وقد يستفيد الفعل صفة الوجوب، أو الندب في دليل آخرَ[22].

في ضوء ما تقدم نلحظ أن السكوت الحاصل من خير الخلق محمدٍ كان بسبب الاستحسان والرضا، أما دلالته فتخرج إما للإباحة والجواز، أو الوجوب في حالات أخرى.

في السياق نفسه، يشيع استخدامنا المثل القائل:" السكوت علامة الرضا"، وأكثر المناسبات التي يقال فيها إذا تعلق الأمر بزواج البنت، ولكن الأمر ليس حقيقة ثابتة، ذلك أن الصمت والسكوت الحاصل لدى البنت، قد يكون بفعل المحيط الأسري والاجتماعي، والأطر والأعراف التي تمنع البنت من إبداء الرأي في مثل هذه الأمور، في حين السكوت الذي يكون نتيجة الرضا والقبول، لا يتأتى رصده إلا من خلال الإيماءات المصاحبة لهذا السكوت، كطأطأة الرأس واحمرار الوجنتين، والابتسامة الخفيفة نتيجة الحياء بفعل المقام.

ب/ صمت الصدمة: Le silence du choc

يعد الصمت الناتج أو الواقع بفعل الصدمة، **صمتاً لا إراديا**، ويتعلق بالمتلقي بالدرجة الأولى.

وتختلف درجات هذا الصمت باختلاف درجات الصدمة الواقعة وقوتها، فقد نكون بصدد صمت دائم؛ أي ما يعبر عنه بالاصطلاح العلمي الحبسة الكلامية (Aphasie)[23]. وهنا لا يمكن اعتبار الصمت نتيجة الصدمة، وإنما نتيجة الضرر الواقع في أحد الأعضاء المسؤول عن الإنتاج الكلامي. هذا العضو هو الجزء الخارجي من التلفيف الجبهي الثالث بالمخ، والتي يطلق عليها منطقة بروكا (Broca)[24].

وفي بعض الأحيان ينجم عن الصدمات خفيفة الوطأة، صمت يمكن تسميته **صمتا وقتيا عرضيا**، يكون فيه استحضار المصدوم لبعض الذكريات التي عاشها، والتي فرضها سياق الصدمة، فعلى سبيل التمثيل؛ أن يتذكر أحدنا أوقاتا جميلة راسخة عاشها مع شخص عزيز بلغنا نبأ وفاته، أو قد يكون هذا الصمت رحلة في الزمن المستقبل واستشرافا لما قد يحصل بعد خبر سمعناه أو

حدث وقع، فبعض الأخبار التي نسمعها، والأحداث التي نشهدها قد تكون نقطة تحول في حياة كل واحد منا، إما بالإيجاب أو السلب.

ويمكن-أيضا- اعتبار الفترة التي يقضيها المتلقي صامتا، فترةَ انقطاعه عن الواقع، وفك الارتباط بما يدور حوله، والولوج إلى عالم الغيب بين ذكريات الماضي ورهانات المستقبل، ولا يمكن – في نظري- تأويل هذا الصمت ما لم تكن لدينا دراية بسياق الصدمة الواقعة، فصدمة الوفاة تختلف عن صدمة الفشل أو النجاح، أو الصدمات المتعلقة بالصداقة والخيانة والوفاء.

ج/ صمت الخوف:Silence de la peur

يعدّ الخوف أحد أكثر الأسباب المؤدية إلى الصمت، ومثلما هي الصدمة، تختلف أيضا درجات الصمت والتي تتناسب طردا مع زمن الصمت الواقع، ويمكن ملاحظة هذا الصمت عند كل الفئات، خصوصا الأطفال منهم، فمن المعروف على الطفل أنه في كثير من الأوقات يستنجد بالصمت إزاء إثارة لفظية ما، كسؤاله مثلا: لماذا لم تراجع دروسك؟ هل أخبرت والدك بالحضور إلى المدرسة؟ من قام بتكسير هذا؟ أو توسيخ ذاك؟، وغيرها من الأمثلة التي يمكن طرحها، والتي يقابلها أغلب المتمدرسين خصوصا في الطور الابتدائي[25].

أما الخوف لدى الأشخاص البالغين، فهو مرتبط كل الارتباط بشبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة بين هؤلاء الأفراد، ونذكر على سبيل التمثيل لا الحصر، الصمت الذي يصاحب بعض الأشخاص الذين يتعرضون إلى مساءلات واستفزازات من طرف رؤسائهم في العمل، فالكثير من هؤلاء يلزمون الصمت ليس من باب العي على الرد أو الخوف من السائل نفسه، بل صمت لتجنب ما قد يحصل حالة التكلم أو الرد، ففترة هذا الصمت هي فترة التفكير وإعادة الحسابات والتكهن وتوقع ما سيحدث حالة الردّ كالتعرض للعقاب والمضايقة مستقبلا، أو الفصل من العمل.

إن الصمت الناتج عن الخوف، قد يكون في بعض الأحيان جبنا أو عجزا –وهو صمت مذموم- إلا أنه غالبا ما يكون لأسباب أخرى، فهذا الصمت " يستند إلى خلفية ذرائعية، في العم الأغلب، لأن ما يُسمح به كصمت وتصميتٍ، يُسمح بالمقابل ككلمٍ...فالكلام الذي هو شر في معظمه، يعرض صاحبه للكثير من العواقب، والمتكلم ليس سيد نفسه بل ملك للآخر"[26]

د/ المسكوت عنه:le non dit

المسكوت عنه انقسام من انقسامات الصمت الممارس من قبل الإنسان، نتيجة حدود وخطوط حمراء تمنع عنا التجواز، والخوض في مسائل من شأن الحديث فيها أن يضرّ أكثر ممّا ينفع، ولوضع المتلقي في صورة أوضح حول المسكوت عنه أُورد المثل القائل:" دع البئر بغطائه" فهذا الأخير يلخص خطورة الخوض والكلام في أمور إفشاؤها أو كشفها ضررٌ أكثر من نفعٍ.

لقد كتب صاحب كتاب" **المسكوت عنه من تاريخ الخلفاء الراشدين**" في مقدمة كتابه " أعلم تماما أنّ من لم يقرأ لنا من قبل، ثم يقرأ هذا الكتاب ستصيبه صدمة كبرى، فقد عاش كما عاش السلف على تقديس الخلفاء الراشدين قرونا"[27]. واستهلال الكتاب كتابه بهذا الكلام ما هو إلا دليل واعتراف ضمني من المؤلف أنه قد خاض في مسائل سكت عليها دهرا، وأن هذه الجرأة في الخوض –بصرف النظر عن مدى صدقيتها وحقيقتها– من شأنها أن تضره أو تضر غيره.

وبالعودة إلى واقعنا، فإن المسكوت عنه مَمارسٌ بطريقة فطرية، تكاد تكون غير مدركة، وفي مجال تخصصنا (اللغة)، فحتما كل واحد منا يُسائل نفسه حول طبيعة الكلام الفاحش والقبيح، وتراودنا الأسئلة الكثيرة حول ماهيته: من أي جاء؟ أصوله، كيف تطور؟. بيْد أنه لا سبيل إلى طرح القضية ومعالجة هذه الظاهرة معالجة علمية لسانية، لغياب سبل وآليات طرحها وعرضها. وفي حال ما عولجت هذه الظاهرة مع التصريح بالألفاظ الفاحشة، فحتما سيُلاقَى هذا النوع من الدراسات بالنقد اللاذع واللعن أكثر من الاستحسان والتأييد، إنْ كان هناك استحسان وتأييد في الأصل.

تتعدد صور المسكوت عنه في المجتمع –خصوصا المجتمع الإسلامي– وتختلف مظاهره لتعدد الموانع؛ كالمانع الديني والثقافي والأخلاقي والاجتماعي والقانوني... فأغلب الثقافات تتضمن ألفاظا ومفردات يمنع الكلام أو التفوه بها، لما فيها من " إيحاءات مكروهة ولدلالتها على ما يستقبح ذكره، إذْ تدخل في مجال اللامساس (tabou)"[28] ، والتابو" مصطلح بولينيزي، يطلق على كل ماهو مقدس أو ملعون، ويحرم لمسه أو الاقتراب منه لأسباب خفية، سواء أكان ذلك إنسانا أم كلمة أم شيئا آخر، فإذا ما اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال تحت تأثير عامل اللامساس، حلّت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى" [29]

هذا الأسلوب نلمح استعماله في القرآن الكريم؛ إذْ "كنّى عن العملية الجنسية بألفاظ كريمة هي: السر والحرث، والإفضاء والمباشرة، والملامسة، والرفث: (نساؤكم حرث لكم / من نسائكم اللاتي دخلتم بهن / أو لامستم النساء..."[30] .

إن المسكوت عنه الذي نحن بصدده هو المحظور الذي لا يمكن البوح به أو الخوض فيه، وقد يتخذ دلالة أخرى تكمن في كونه" كل ما هو مشحون بدلالة لم تتم صياغته أو لم يعبر عنه بشكل صريح في الملفوظ"[31].

وهو نوع شائع في الكتابات يتخذ صورا متعددة من بينها التضمين والإضمار والحذف، بالرغم ممن يعارض هذا الطرح في كون الحذف أو الإضمار ليس المرادف الفعلي للمسكوت عنه، حيث المسكوت عنه ما يقابله في الفرنسية (le non dit)[32] ، في حين الضمني يقابله المصطلح (implicite)[33].

رابعا/:الصمت والنص السردي:

تتمظهر اللغة من خلال سجلاتها التعبيرية: الكلام والصمت، وهي منظمة حول ما ذُكر وما لم يُذكر، حول الغياب والوجود[34]. وعلى هذا فحديثنا عن الصمت في الخطابات والنصوص السردية ليس من باب التناقض، فعلى حدّ قول هافال " الصمت تلفظ غائب أو بالغياب (un acte énonciatif in absentia) وهو عكس النطق والكتابة المجسدين في الصوت"[35].

إن البحث في الصمت كظاهرة علاماتية في الروايات والنصوص السردية، حديثة العهد، وما ظهر من الدراسات تعلق " بمسألة الصمت في الرواية الغربية، من بينها الدراسة القيمة التي قام بها هافال (Heaval) والتي لم تمضي عليها إلا خمسة وثلاثون سنة"[36] تحت عنوان" parole , mot, silence ; pour une poétique de l’énonciation" وهذا ما يفسر لنا قلة وندرة الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع.

لقد تساءل هافال عن هذا الأمر، وتعجب حول غياب الأطر النظرية والمنهجية الواجب إتباعها حين دراسة الصمت، وقلة المراجع التي نستند إليها أثناء التعرض لهذا الموضوع[37]. والحال نفسها تتكرر في الأدبيات العربية " إذ لا نجد حضورا لافتا للنظر، أو على الأقل لا نقرأ ما هو مستحق النظر فيه بخصوص الصمت..."[38].

يختلف الصمت الممارس في النصوص السردية عن الصمت الذي تعرضنا إليه في ثنايا هذا البحث، حيث" السمة الكبرى للصمت هنا؛ تكمن في نرجسيته المثيرة والمنفتحة، خلاف الكلام الذي يكون مكشوفا، فالصمت كلام الذات للذات وبالذات"[39]. فالسارد إنما يلجأ إلى الصمت في السرد لسببين؛ إما توسيعا للدلالة وحمل المتلقي على احتمالات متعددة، وتهيأً لما سيأتي ويتشكل من الكلام اللاحق. أو هو عيٌّ ناجم عن خيانة الكلمات له، وعدم القدرة على نقل أو البوح بما يختلجه، ويكون الصمت في هذا أدلّ وأبلغ.

انطلاقا من دواعي إعمال الصمت في النص السردي، حاول هافال تقسيمه إلى صمت طوعي إرادي (Silence volontaire)؛ أي ما لا يريد الكاتب البوح به (réfère à ce que l'écrivain ne veut pas dire)؛ والثاني صمت اضطراري (Silence involontaire)؛ أي ما لا يقدر ولا يستطيع الكاتب التصريح أو البوح به[40].

1/ الصمت الاضطراري:Silence involontaire

من الصعب مما كان تحليل هذا النوع من الصمت الذي يختبئ وراءه الكاتب، بالرغم من جهوده ومحاولاته في الإعلان عما يجول بداخله كما يتضح من الخطاب المقدم أو المعلن، إذ الصمت هنا مالا يقال ويتحرك في لاوعي الكاتب خلال فعل الكتابة، ولكن يشعر بوجوده المستمر، كما يشعر به المتلقي أو القارئ[41].

إنه الصمت الحقيقي للنص حيث يقع الكلام صامتا، ويظهر اللاوعي رغما عن نفسه، فيه يلمس القارئ ما يشعر به في الموضوع أثناء فعل القراءة.

ومن نماذج الصمت الاضطراري في الكتابات السردية تلك المساحات البيضاء التي تتخللها، وأُوردُ في هذا المقام، ما استدل به هافال والمتمثل في الصفحة (88) من رواية -Alain Robbe Grillet المعنوة بـ:le Voyeur (1955). فهذه الورقة ذات المساحة البيضاء، تُفسر في العادة على أنها انعكاسات نفسية للكاتب في الرواية تتجسد في شخصياتها (Matthias) و(Andesmas)[42].

من هذا المنطلق فمجموع الفضاءات البيضاء المبعثرة في المؤلفات الروائية تجسد واقع الأمر "الإنجاز الوحيد بالنسبة لأي كاتب، وكل صفحة بياض في كتاب هي مساحة مسروقة من الحياة، لأنها تصلح بداية لقصة أخرى أو كتاب آخر، إنه المسكوت عنه وهو الحق والحقيقة معا"[43].

2/ **الصمت الطّوعي (الاختياري)**:Silence volontaire

على حسب هافال (Pierre Van Den Heuvel) فإن هذا النوع من الصمت وللوهلة الأولى يظهر أنه أكثر حالات الصمت سهوله في التحليل[44]، حيث يفرض الموضوع صمتا على الخطاب، من خلال اعتماد أساليب متعددة واستراتيجيات خطابية متنوعة؛ كالحذف والإضمار، بغية تحقيق أهداف مختلفة، منها ماهو متعلق بالكاتب، ومنها ماهو متعلق بالقارئ، فالكثير من الكتّاب دائما ما يسعون إلى ترك أسرار في ثنايا ما يكتبون ينتظر الكشف عنها من قبل القارئ.

– يتخذ هذا الصمت في الخطابات والنصوص السرية صورا وأشكالا متعددة "أبسطها هو الجملة غير المكتملة، أو التي تحتوي على فراغ، أو تنقيح، أو تنتهي بنقاط التعليق"[45] وكل هذا يُعبرُ عنه بالنقص أو الغياب الخطي(manque graphique). فعلى سبيل التدليل لمثل هذا النوع من الصمت نُورد بعض المقتطفات من رواية الطاعون لصاحبها ألبرتو كامو (Albert Camus)

وتتقدم نحو الشارع، وهي تمد أرجلها بتردد نحو القصاصات الأخيرة، وحينئذ يأخذ الرجل في البصاق على القطط بقوة ودقة، فإذا ما أصاب الهدف ضحك من أعماقه؟..[46]، فنقاط التعليق ههنا تحيلنا على صمت الكاتب الإرادي ليفسح المجال أمام القارئ لطرح التساؤلات حول تلك الضحكات –والتي بطبيعة الحال ليست بداعي إصابة الهدف– ويحمله على تخمينات متعددة تعطي تشويقا أكثر وحافزا مغريا لمواصلة القراءة. في المقابل كان في إمكان الكاتب أن يفشي سر تلك الضحكات ويسرد لنا أسبابها.

"أتمنى أن أجد الوقت الذي أستطيع فيه أن أكتب لها خطابا لتعرف... حتى تستطيع أن تكون سعيدة دون أن يعذبها تأنيب الضمير"[47]

إن هذا الصمت المتجلي في نقاط التعليق حتما سيدفع القارئ إلى احتمالات عدة وتأويلات مختلفة في محاولة للإجابة عن سؤال: تعرف ماذا؟. ولن أطرح هنا تأويلات القارئ وأنوب عنه، بل أفسح المجال من جهة، ومن جهة أخرى تأويلات الصمت تخضع لسياق الرواية عموما، وشخصية غران خصوصا (أحد شخصيات رواية الطاعون وقائل هذا القول) .

ويتكرر هذا الشكل من الصمت في محطات عديدة من الرواية، قد يطول الحديث فيها أو لا يتسع المقام لذكرها. وأظنه شكلا كثير الظهور في كل الروايات والكتابات تقريبا.

– عبارة (إلخ، etc) شكل آخر من أشكال الصمت الطوعي، يستعمل بطريقة لافتة في كل الكتابات تقريبا الأدبية منها أو العلمية، وعلّه تداوله أنّ القارئ –وبسهوله شديدة– له القدرة على إتمام المقطتع من الجملة أو العبارة استنادا لما سبق هذا الصمت، كقولنا الأشكال الهندسية، مثل المربع، المستطيل...إلخ. فهنا المتلقي يسهل عليه إتمام الجملة بـ: دائرة، معين، متوازي الأضلاع...

– المسكوت عنه أو المحظور: يمثل مظهرا أخر من مظاهر الصمت الطوعي، ويتمظهر –على سبيل المثال في كتابة الأحرف الأولى من الكلمات النابية والفاحشة، مصحوبة بنقاط التعليق (...)؛ فلا الإطار الاجتماعي ولا الثقافي ولا الديني يسمح بالتصريح في مثل هذا الموضع، وإن صادف وصرح الكاتب بمثل هذه الألفاظ أو العبارات التي تَمجُّها الآذان، فهو تمرد وتجاوز يعرّضه حتما للنقد، ما لم يمكن الهدف واضحا من التصريح. وموازاة مع هذا، قد يلقى التأييد والترحيب –كنوع من التشجيع– إن كان الهدف من هذا التصريح هو تعرية الواقع الاجتماعي الذي مارس عليه الكاتب فعل الكتابة.

خاتمة:

1/ من خلال ما تقدم عرضة من انقسامات وأشكال للصمت (ظاهرةً في النظام التواصلي أو الكتابات الأدبية). يبقى الصمت في مفهومه المجمل متعلق بالمقام أو السياق الذي يرد فيه، فالأشكال المطروقة في ثنايا هذا البحث من الممكن أن تَرِد مجتمعة وتتداخل في صمت ما، بحيث قد نُلفي صمتا إراديا طويلًا أو قصير المدى، كما يمكن أن نقف على صمت اضطراري طويل أو قصير المدى. أما المسكوت عنه، أو اللامساس فقد نرصده صراحة (تمرد وتجاوز)، أو يتمظهر في صور مشفرة إما خوفا، أو خضوعا لعُرف ونواميس الحياة.

2/ الصمت حاله حال الكلام لا يملك دِلالته المقصودة إلا الصامت ذاته.

في الختام تبقى مسألة الصمت في الأنظمة التواصلية، ميدان بحث خصب يحتاج رعاية واهتماما أكثر، وبحوثا تطبيقية جادة، أملا في الكشف عن خباياه وجمالياته سواء تعلق الأمر بالأنظمة التواصلية أو الكتابات السردية (روايات، قصص...). ذلك أنّ " الصمت –بالنظر للغة– هو وجود غائب يثبت غيابه بحضوره، ووقوعه خارج اللغة لا يلغي صلته المتينة بها"[48].كما أنّ

استثمار النظريات البلاغية من شأنه الكشف عن خبايا الصمت في النصوص، الذي يبدو في الوقت الحاضر بعيد المنال.

لقد كان الهدف من الورقة البحثية تسليط الضوء على ظاهرة أساسية في نظامنا التواصلي، وكتاباتنا وخطاباتنا، ممارسة بشكل فعالٍ ظلتْ –ظلما- في الوعي الأغلب تحيل على السلب واللاتجاوب. فإذا كانت وظيفة اللغة الأساسية التواصل والتعبير، فإن الصمت أساس تحقق هذا التواصل ونجاح ذلك التعبير، بل إن الصمت نصف عملية التواصل، حيث يتساوى والكلام المنطوق.

هوامش:

1 جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: حسن السمت في الصمت، تح: نجم عبد الرحمن خلف، ط1، 1985، ص 34.

2 المرجع نفسه، ص 35.

3 ابن فارس: مقاييس اللغة، ج3، باد الصاد، مادة (ص.م.ت)، ص 308.

4 المرجع نفسه، ص 308.

5 ابن منظور: لسان العرب، مادة (ص.م.ت).

6 الجاحظ: البيان والتبين، تح: عبد السلام هارون، ج1، ط7، مطبعة المدني، 1998، صص 82.81.

7 أبو البقاء الكفوي :الكليات، تح :عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1998، ص 129. و محمود فهمي حجازي :الأسس اللّغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر، (د.ت)، ص11 .

8 Véronique LABEILLE ; Le silence dans le roman: un élément de monstration. http://revel.unice.fr/loxias/index.html.

9 الجاحظ: رسائل الجاحظ، تح عبد السلام هارون، ج1، القاهرة، مصر، 1964، ص 113.

10 المرجع نفسه، ص 167.

11 المرجع نفسه، ص 197.

12 " من الذين يفرقون بين الإضمار والحذف، الثعالبي في فقه اللغة، وإنْ لم يصرح، فقد عقد فصلاً للحذف والاختصار، أورد فيه حذف جزء من الكلمة، وحذف حروف المعاني، وحذف المفعول...إلخ، ثم عقد فصلا في:

الإضمار يتناسب مع ما تقدم من الحذف". ينظر:محمد الأمين محمد المختار: الإضمار البلاغي في القراءات القرآنية، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2014، ص 30.

13 " يستعمل عبد القاهر الجرجاني الحذف والإضمار بالمعنى ذاته؛ إذْ عقد بابا للقول في الحذف يورد فيه نماذج من حذف المبتدأ، ثم يقول: وكما يضمرون المبتدأ فيرفعون، فقد يضمرون الفعل فينصبون". المرجع نفسه، ص31.

14 المرجع نفسه، ص 32.

15 استفدت في وضع المخطط مما ورد في كتاب الإضمار البلاغي لمحمد أمين مختار، ص 33 وما بعدها.

16 ترجمتنا للنص الأصلي:

"Il n'existe pas de silence absolu ; il se produit toujours quelque chose qui émet un son". ***Bruneau Thomas J., Achaz Francine***. Le silence dans la communication. In Communication et langages, p5 doi : 10.3406/colan .1973.4045 http://www.persee.fr/doc/colan_0336 1500_1973_num_20_1_4045

17 Ibid. P6.

18 Ibid. p 7.

19 Ibid. p 7.

20 عبد الله بن يوسف الجديع: تيسير علم أصول الفقه، مؤسسة الريان، بيروت، ط4، 2006، ص 127.

21 علي بن أحمد بن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد شاكر، تقديم: إحسان عباس، ج2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1983، ص166.

22 عبد الكريم زيدان: الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1996، ص 167.

23 "الأفازيا (aphasie) مصطلح يوناني يتضمن مجموع العيوب التي تتصل بفقدان القدرة على الكلام أو الكتابة، أو عدم القدرة على فهم الكلمات المنطوق بها، أو إيجاد الأسماء لبعض الأشياء والمرئيات أو مراعاة القواعد النحوية التي تستعمل في الحديث أو الكتابة". مصطفى فهمي: أمراض الكلام، ط5، دار مصر للطباعة، مصر، (د.ت)، ص 65.

24 ينظر: حنفي بن عيسى: محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2003، ص 274.

25 بحكم ممارستي لمهنة التدريس بالطور الابتدائي؛ فإني ألحظ هذا النوع من الصمت بصورة متكررة لدى التلاميذ (7- 11 سنة) وهو خوف ناجم عن التصورات القبلية لدى المتعلم إزّاء المعلم، والمستقاة من المحيط الأسري والاجتماعي، فأغلب المتعلمين قد طُبعت في أذهانهم تلك الصورة أو الشخصية الديكتاتورية للمعلم، وأن مصير من يخطئ أو ينسى العقاب الشديد.

26 إبراهيم محمود: جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002، ص19.

27 أحمد صبحي منصور: كتاب المسكوت عنه من تاريخ الخلفاء الراشدين/ موقع أهل القرآن/ اطلع على الكتاب إلكترونيا من هذا الموقع: يوم: 2017/12/29.

28) أيت عبد الله حياة: ترجمة المسكوت عنه في الخطاب السياسي، (مخطوطة ماجستير تخصص ترجمة، جامعة بن بلة1، وهران، 2015/2014، ص 21).

29 ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، دار الشباب، دت، ص 174.

30 إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، 1984، ص 142.

31 أيت عبد الله حياة: ترجمة المسكوت عنه في الخطاب السياسي، ص 18.

32 le non dit ; ce qui bien que chargé de sens, n'est pas formulé explicitement dans un énoncé. www.larousse/non dit.fr

33 المرجع السابق، ص 19.

34 l'expression langagière et dramaturgique du silence dans l'œuvre théâtrale de Jean Giraudoux./ Garole Skaff, (thèse de doctorale de Littérature français. Université Sorbonne Mouvette, Paris 3.(soutenue le 03/12/2011) P 12.

35 محي الدين حمدي: مدخل إلى الصمت في النص السردي، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، ع8، جانفي 2011، ص 10.

36 المرجع نفسه ، ص 2.

37 المرجع نفسه ، ص 2.

38 المرجع نفسه ، ص 2.

39 إبراهيم محمود: جماليات الصمت في المخفي والمكبوت، صص 17.16.

40 Pierre Van Den Heuvel, parole, mot, silence, pour une Poétique de l'énonciation, 1984,Paris. P 86.

41 Ibid. p 86.

42 Ibid. p 87.

43 جمال مباركي: سيميائية الصمت في رواية " فوضى الحواس"، أعمال الملتقى السابع " السيمياء والنص الأدبي"، جامعة بسكرة، نوفمبر 2015، ص191.

44 Pierre Van Den Heuvel, Op cit, p 86 (A première vue, c'est le cas le plus facile à analyser, celui où le sujet impose sciemment le silence à son discours).

45 Pierre Van Den Heuvel, Op cit, p 86 ((La forme la plus simple du silence volontaire, car la plus visible, est le manque graphique: la phrase incomplète, contenant un blanc, une biffure, ou se terminant par des points de suspension.)

46 ألبر كامو: الطاعون، ترجمة: أنور سميا، مراجعة: محمد كزما، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1978، ص 32.

47 المرجع ، نفسه، ص 272.

48 محي الدين حمدي: مدخل إلى الصمت في النص السردي، ص 11.